أسرار تناسب الآياتِ
المختومة بأسماء الله الحُسنى مع السياق

د. خالد بن محمد العثيم
كلية الملك خالد العسكرية

أسرار تناسب الآياتِ المختومة بأسماء الله الحُسنى مع السياق

د. خالد بن محمد العثيم
كلية الملك خالد العسكرية

تاريخ تقديم البحث: ٤/ ٢/ ١٤٤٢ هـ تاريخ قبول البحث: ٢٩/ ٣/ ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

نظم القرآن مليء بالأسرار البلاغية، وللسياق أهميته في كشف هذه الأسرار وتتبع مظانِّها، ويُعنى هذا البحث بالكشف عن أهمية السياق والقرائن التي جعلت الآية تختم بهذا الاسم دون ما سواه من أسماء الله الحسنى، وعلى خلاف ما يظنه المتلقي والقارئ لهذا القرآن العظيم.

ولما كان للسياق دور فاعل في توجيه المعنى الذي استدعى هذه الخواتيم، كان هذا البحث للكشف عن تلك الأسرار.

الكلمات المفتاحية: التناسب، السياق، الأسرار البلاغية، النظم القرآني.

Impact of the Context on the Endings of VersesConcluded with the Most Beautiful Names

Dr. Khaled Bin Mohamed Al-Othaiyem
King Khaled Military College

Abstract:

Rhetoric of the Qur'an is replete with many eloquent secrets. The context has a very important role to do in revealing these secrets and identifying their positions. As such, this paper attempts to highlight the significance of the context and the reasons why these verses were concluded with a very specific Name, not any other Name else – an ending which might be unexpected by the reciter of and listener to this Great Qur'an .

Out of the fact that context has an effective role in conveying the meaning that necessitates these very particular endings, this paper aims to reveal these secrets.

key words: context, rhetorical secrets, rhetoric of the Qur'an

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الحق المبين، والصلاة والسلام على أبلغ الخلق وخاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين، وبعد:

فإن أسلوب القرآن الكريم أرض خصبة لكل زارع، وحصاده دائم يؤتاه الباحثون بإذن ربهم، ولمحبة الباحث لأسلوب هذا القرآن العظيم، ولأسماء الله الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة، كان هذا البحث الذي يتغيّا فيه الباحث أن يظفر بسرٍّ من أسرار ختم الآيات بأسمائه الحسنى، وملاءمة هذا الاسم دون ما سواه، مع أنه يتبادر لذهن القارئ أنه لو كان الختم بغيره من الأسماء لكان أنسب، ويُعنى هذا البحث بالكشف عن أهمية السياق والقرائن التي جعلت هذا الاسم خاتماً للآية دون ما سواه وعلى خلاف توقع المتلقي.

وكان منهجي في اختيار الآيات يتم وفق ما يلي:

أولاً: الاستقراء، فقد استعرضت آيات القرآن كلّها، وما يسبق لفهمي أن تختم به الآية، ثم يأتي الختم على خلاف ذلك قيّدته؛ لأن كثيراً من الآيات يسبق للفهم أن تختم بغفور رحيم، فتختم بذلك وهو ما أشار إليه علماء البلاغة في مبحث (مراعاة النظير)، أو تحت مسمَّى (تشابه الأطراف)، كما في قصة الأعرابي حول آية "والسارق والسارقة...".

فهذه الآية بحثها العلماء كثيراً ومناسبة ختمها بـ(عزيز حكيم)، ولم أتطرق إليها؛ لأنها لا تدخل في المنهج الذي رسمته، وأن الآيات المقصودة في بحثي هي التي تختم بخلاف ما يتبادر إلى ذهن القارئ.

ثانياً: الاستهداء بكلام العلماء حول الآيات التي اخترتها، وهل هي موافقة للمنهج الذي رسمته، وسرت على سننه، فإن وجدت ما يقوي ذلك أثبت الآية، وبحثت عن سر ذلك الختم.

ولما كان للسياق دور فاعل في توجيه المعنى الذي استدعى هذه الخواتيم، جاء هذا البحث؛ للكشف عن أسرار خاتمة الآيات لهذه الأسماء، في ضوء فهم السياق.

ويأتي البحث في مقدمة، ومبحثين:

المبحث الأوَّل: السياق، معناه، ودلالته، وأهميته.

المبحث الثاني: مناسبة ختم الآية بأسمائه الحسنى.

المبحث الأوَّل: السياق معناه، ودلالته، وأهميته

السياق في اللغة:

ذهب ابن فارس إلى أن "السين والواو والقاف أصلٌ واحد، وهو حدوُ الشيء. يقال: ساقه يسُوقُه سَوقاً، والسَّيِّقة: ما استيق من الدواب"(١).

وقال ابن منظور: "السَّوق: معروف. ساق الإبل وغيرها يسُوقها سَوْقاً وسِياقاً، وهو سائق وسوَّاق، شُدِّد للمبالغة..."(٢).

وقد انساقَت وتَساوَقَتْ الإبلُ تَساوقاً إذا تتابعت، وكذلك تفاودت فهي مُتقاودة ومتساوقة.

وفي حديث أم مَعْبد: فجاء زوجها يَسُوق أعْنُزاً ما تساوق، أي ما تتابع. والمساوَقة: المتابعة كأنَّ بعضها يسوق بعضاً.

وساق إليها الصَّداقَ والمهرَ سياقاً وأساقَه، وإن كان دراهم أو دنانير؛ لأن أصل الصداق عند العرب الإبلُ، وهي التي تُسَاقُ، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما... والسِّياق: المهر(٣).

وقال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): "ومن المجاز: هو يسوق الحديث أحسن سياق. وإليك سياق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه أي سَرْدِه"(٤).

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ١١٧/٣.

(٢) لسان العرب: مادة (سوق)، (١٦٦/١٠).

(٣) ينظر: المصدر نفسه: مادة (سوق)، (١٦٦/١٠).

(٤) أساس البلاغة: ٣١٤.

ويقصد بالسرد التوالي والتتابع كما في قوله: "سرد الحديث والقراءة جاء بهما على ولاء"[١].

وللسياق حضوره في التراث العربي بهذه الصيغة (السياق)، أو بصيغ أخرى تؤدي نفس المفهوم عند اللغويين، والبلاغيين، والأصوليين، والمفسرين؛ كالحال، والمشاهدة، والدليل، والقرينة، والمقام، والموقف، والبلاغيون يستخدمون كثيراً مصطلحات الحال والمقتضى، ومقتضى الحال[٢].

والسياق يطلق ويراد به السياق اللغوي وكان أوَّل من استخدمه بهذا المعنى الشافعي (ت٢٠٤هـ) حين عقد باباً في الرسالة أسماه (باب الصنف يبين سياقه معناه)[٣].

وفي موضع آخر نراه يشير إليه دون أن يذكر المصطلح بعينه فيقول: "وتبتدئ العرب الشيء من كلامها، يبين أوَّل لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه من أوله"[٤].

واستعمل الشاطبي (ت٧٩٠هـ) لفظ (المساق)، ويعني به السياق بنوعيه سياق النص، وسياق الموقف؛ إذ يقول: "المساقات تختلف باختلاف الأحوال، والأوقات، والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، والذي يكون على بالٍ

---

(١) المصدر نفسه: ٣٩٢.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٩٢، ومفتاح العلوم: ٦١، ٦٣، وتلخيص المفتاح: ٣٣، وعروس الأفراح: (١/١٥٥).

(٣) الرسالة: ٦٢.

(٤) المصدر نفسه: ٥٢.

من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أوَّل الكلام وآخره بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها... ولا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف..."(١).

وقال: وهو يعيب طريقة التوسع في فهم ألفاظ القرآن الكريم، بما يتعدَّى الدلالة الأصلية المقصودة، مستثنياً من ذلك: أنه قول في كتاب الله بالرأي، وذلك بخلاف الكناية في مثل قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴿٤٣﴾﴾ (٢)، "فإنه شائع في كلام العرب، مفهوم من مساق الكلام"(٣).

وللزركشي إشارة واضحة للسياق عندما أفرد عنواناً، أسماه: (دلالة السياق)، بدأه بالقول: "أنكرها بعضهم، ومن جهل شيئاً أنكره، وقال بعضهم: إنها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى"(٤).

ويُشير السيوطي في مواطن عدّة إلى السياق، وهو مطلع جيّد على آثار من سبقه، وجامع لما تفرق، يقول: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن: هو أن تنظر الغرض الذي سيقت له السورة"(٥).

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة: ٣/٤١٣- ٤١٤.

(٢) سورة النساء: ٤٣.

(٣) الموافقات: ٣/٢٧٨.

(٤) البحر المحيط في أصول الفقه: ٦/٥٢.

(٥) الإتقان: ١/١١٠.

وقال بصدد بيان الفرق بين تعبيرين حول موضوع واحد، ورد في سورة البقرة وسورة الأعراف؛ فانفجرت (في البقرة)، وفي الأعراف: (فانبجست)؛ "لأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء، فناسب سياق ذكر النعم التعبير به"(١).

وقال وهو بصدد بيان أسباب الخطأ في التفسير بالرأي: "وما يجوز أن يراد به، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم وسياق الكلام"(٢).

وقال: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز"(٣).

قال السيوطي: "على المفسر مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له"(٤).

ولقد كان المفسرون من أسبق العلماء الذين اهتموا بالسياق، واستعانوا به وسيلة مهمة من وسائل الكشف عن المعنى المراد للشارع الحكيم، والتفسير بمفهومه الاصطلاحي ينصب على نص خاص، ذي سمات معينة تسوغ خصوصيته، أو تجعله مختلفاً عن بقية النصوص، لعلَّ من أهم هذه السمات التي يمتاز بها النص القرآني أنه: "كلام الله تعالى، المنزل على محمد- صلى الله عليه وسلم-، المتعبد بتلاوته"(٥).

---

(١) المصدر نفسه: ١/١١٥.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٧٨.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٨٦.

(٤) المصدر نفسه: ١/١٨٥.

(٥) التحبير في علم التفسير: ٣٩.

وهذا التنزل المبارك الذي تعبدنا بتلاوته، أضفى عليه قداسة وجلالاً لدى المسلمين لم يكن لنص آخر، بَيْدَ أنّ هذا الجلال والتقديس للقرآن الكريم لم يقف حائلاً دون دراسته بأشكال ولأغراض وبمناهج مختلفة، فَدُرس لغوياً في كتب معاني القرآن، وغريبه وإعرابه، ودرس أدائياً- قراءة وكتابة- في كتب القراءات صحيحها وشاذها، ورسم المصحف وجمعه...، وتناوله الفقهاء في كتب الأصول والأحكام، وتناوله البلاغيون في كتب الإعجاز وبديع القرآن.

وكل هذه الأشكال من التعامل مع القرآن الكريم كانت باعتباره كتاباً مقدساً معجزاً، ومصدراً للتشريع، وكل من تناول القرآن الكريم بالدرس إنما كان يبحث عن المعنى على وجهٍ من الوجوه، وللمفسرين في البحث عن المراد أو المعنى في القرآن الكريم طريقان هما نوعا التفسير، وهما: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، فأمَّا التفسير بالمأثور فمعتمده القرآن، والسنة، وأقوال الصحابة[1].

وهذه الطرق الثلاثة للتفسير بالمأثور تعتمد في معظمها على السياق بنوعيه، فهي تعتمد استقراء النصوص (سياق القرآن) فإنه يفسر بعضه بعضاً، أو السنة وهي إن لم تكن فعلاً أو تقريراً فلا شك هي قول أي نص، ففي هذين الطريقين تناول للقرآن الكريم بالنصوص منه ومن السنة، وهذا سياق النص.

أمَّا سياق الموقف فيبدو في أقوال الصحابة في التفسير؛ لأنهم شاهدوا القرائن والأحوال، وهذه القرائن والأحوال تتمثل أولاً في أسباب النزول، فكثير من

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/١.

الآيات ارتبطت بمواقف وأحوال اقتضت نزولها، وسبب النزول معين على فهم المراد من الآية.

قال ابن تيمية: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"(١).

ويعدّ الطبري مفسراً رائداً في تأصيل قاعدة السياق القرآني، واستثمارها في تفسير النصوص، وتتجلَّى هذه الريادة أوَّل ما تتجلَّى في صياغة قواعد السياق، والحث على إعمالها عند النظر في كتاب الله تعالى، ومنها قوله: "ردّ الكلام على الذي أقرب إليه أولى من ردّه على الذي هو أبعد منه"(٢)، وقوله: "غير جائز صرف الكلام عمَّا هو في سياقه إلى غيره، إلاَّ بحجة يجب التسليم لها، من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول- عليه السلام- تقوم به حجة، فأمَّا الدعاوى فلا تتعذر على أحد"(٣).

وفي مجال التطبيق والتنزيل يسترفد الطبري دلالة السياق في الترجيح بين الروايات، واختيار المعنى الأنسب لمساق الكلام ونظمه، واستجلاء الروابط النحوية، والأسلوبية، والمقامية بين الآيات، وقد ألمع إلى هذه المزية الأستاذ المحقق محمود شاكر في تحقيقه لـ (جامع البيان)، حين قال: "لم يغفل عن هذا الترابط الدقيق بين معاني الكتاب، سواء كان ذلك في آيات الأحكام، أو آيات القصص، أو غيرها من نصوص هذا الكتاب، فهو يأخذ المعنى في أوَّل الآية،

(١) فتاوى ابن تيمية: ٣٣٩/١٣.

(٢) جامع البيان: ٨٧/١٦.

(٣) جامع البيان: ٣١/٦.

ثم يسير معه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، ثم جملة جملة، غير تارك لشيء منه، أو متجاوز عن معنى يدل عليه سياقها"[١].

والناظر في تفسير الطبري لا يعدم الشواهد الغزيرة على الترجيح بدلالة السياق.

ومثال ذلك ما قاله الطبري في سورة الأحقاف: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾[٢]، "والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل؛ لأن قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ في سياق توبيخ الله تعالى ذكره مشركي قريش"[٣].

والمتتبع لابن جرير في تفسيره يلحظ من تقعيداته في التعامل مع السياق ما يلي:

أولاً: الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه.

ثانياً: أولى تفسير للآية ما كان في سياق السورة.

ثالثاً: النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها.

رابعاً: يختار من المعاني ما اتسق وانتظم معه الكلام[٤].

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٥٣٧/٤.

(٢) سورة الأحقاف: ١٠.

(٣) جامع البيان: ١٢/١١.

(٤) دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير: ١١١.

وكل قاعدة لها شواهد في تفسيره تبين عن عقلية فذة أسست للمفسرين بعد أن يتأملوا كثيراً في السياق ويعتنوا به في تفاسيرهم.

ولعلَّ الزمخشري، وأبا حيان[١]، وابن عطية[٢] من أبرز المفسرين الذين اعتمدوا السياق في تفسيرهم في بيان المعنى المراد وكونه مرجحاً إذا تعدّدت الأقوال، ولعلَّ أصدق وصف بهذه العناية ما قاله الزركشي عن الزمخشري حين تحدّث عن منهجه وعنايته بالسياق: "ولهذا ترى صاحب الكشاف يجعل الذي سيق له الكلام معتمداً، حتَّى كأن غيره مطروح"[٣].

ويمكننا تقريب السياق القرآني من خلال تعريفه:

السياق القرآني: هو انتظام المعاني وتساوقها في وعاء الألفاظ القرآنية على نحو يفيد الغرض المقصود دون انقطاع.

وحتى نجلي هذا التعريف أتم الجلاء نقف عند كل مفردة من مفرداته:

أ- قولنا: (انتظام المعاني) أي: أنها تنساب انسياباً منتظماً لا تستشعر فيه نبواً أو انثلاماً.

ب- قولنا: (تساوقها) أي: أن المعاني الجزئية تتابع وتترادف لشدّ المعنى الكلي في سياق المقطع أو سياق السورة.

ت- قولنا: (وعاء الألفاظ القرآنية) أي: أن الألفاظ حوامل المعاني، وخدم لها، فهي بمثابة اللِّبن الذي يقيم البناء، وينشئ الصرح.

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ١/١٠٧.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ١/٣٦٠.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١/١٣٧.

ث- قولنا: (الغرض المقصود) أي: المعنى الكلي الذي يفيده السياق القرآني، وينزل منزلة مقاصد التنزيل، ولا شكَّ أن المعاني المتساوقة المنتظمة تتناصر على إبراز هذا المعنى وتجليته للقارئ المتدبر.

ج- قولنا: (دون انقطاع) أي: أنه لا يوجد فاصل أجنبي بين الآيات، ولا فجوات تقطع أوصال المعاني القرآنية، فالنص القرآني سوراً، ومقاطع، وآيات كالآية الواحدة تضاماً وتلاحماً(١).

والسياق القرآني من حيث العموم والخصوص ثلاثة أنواع:

١- سياق السورة.

٢- سياق المقطع.

٣- سياق الآية، وهو الذي سنبحر في أسرار ختمها بالأسماء الحسنى.

ومناسبة هذا الاسم دون غيره في هذا السياق، ونرى بعض المفسرين أبعد نظراً فلم يقفوا على معنى اللفظ، وإنما تجاوزوا ذلك لتحليل النص الكامل للآية وتناسب جملها وختامها، وتعلق آخرها بأولها، ويتضح ذلك فيما نقله السيوطي: يحكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ (٢) فأنكره، وقال: "إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه"(٣).

---

(١) نظرية السياق القرآني: ٥٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٩، وصحتها: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

(٣) التحبير في علم التفسير: ٢٩٠، وينظر: فوائد في مشكل القرآن: ١١٥، ١١٦.

إن التناسب الذي بحثه المفسرون وبعض البلاغيين، ليس إلاَّ تنامياً لما قاله الأعرابي، الذي ربط بين أوَّل الآية وآخرها ربطاً تجاوز المعنى المعجمي في موضعه إلى العلاقة بين الكلمات معجمياً.

ويقول العز بن عبدالسلام (ت٦٦٠هـ): "المختار في الصفات الواردة في القرآن أن تكون مناسبة لسياق ما قرنت به"(١)، ويقصد العز تلك الصفات التي تختم بها الآيات الكريمة من نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾(٢).

ولقي هذا الضرب من النهايات للآيات القرآنية عناية خاصة يشملها موضوع (التناسب).

وهذه النهايات التي ترد في خواتم الآيات سمة بارزة من سمات أسلوب القرآن، ووجهاً فائقاً من أوجه بلاغته، والربط بين بدء الآية وخاتمتها يتأتَّى من خلال دراسة نصية لسياق الآية، وعلاقة أولها بآخرها، أو بعبارة أكثر وضوحاً العلاقة بين المفاهيم المصدرة بها الآية مع الخاتمة ممَّا هو من باب المناسبة، هذه المناسبة السياقية ذات المنحى الدلالي بين أوَّل الآية وآخرها بلغ بها بعض المفسرين مبلغاً تجاوز علاقة التناسب بين الآية وخاتمتها إلى العلاقة بين الآيات وبين السور.

---

(١) فوائد في مشكل القرآن: ١١٥.

(٢) سورة المائدة: ٣٨.

ويظهر ذلك بوضوح فيما سُمِّي (علم المناسبات)، ثم وُسمت بها تفاسير اختصت بهذا النوع من التفسير؛ كتفسير البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وكتاب تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور للسيوطي.

وفائدة علم المناسبات كما يُشير إليها الزركشي: "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط، ويصير حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء"(١).

وسوف يكشف لنا المبحث الثاني جمال هذا التلاؤم، وإحكامه، وأن ختم الآيات بأسمائه الحسنى التي وردت فيها هي الأنسب والأبلغ، وإن تبادر لذهن القارئ غير ذلك، كما سيأتي في عرض الآيات واستجلاء أسرارها وحكمها.

(١) المصدر السابق: ١/١٣١.

المبحث الثاني: مناسبة ختم الآية بأسمائه الحسنى

أجمع علماء الإعجاز على أن التناسب من أوجه إعجاز القرآن، غير أن منهم من اهتم بالتناسب اللفظي؛ كالرماني، وعقد له أبواباً في رسالة (النكت في إعجاز القرآن)، كلها تتصل بهذا الوجه من التناسب، وهي: باب التلاؤم، وباب الفواصل، وباب التجانس(١)، ومن العلماء من صرف الاهتمام إلى التناسب المعنوي؛ كشيخ البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني، وهذا الاهتمام يعكسه حديثه عن تلاؤم الألفاظ وترتيبها بحسب ترتيب المعاني وتتابعها، يقول: "فقد اتضح اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"(٢).

وجهود العلماء في ذلك تتكامل ولا تتفاضل، وتتظافر ولا تتنافر وكل منهم مجتهد في سبر أسرار هذا القرآن المعجز.

والمناسبة في اللغة: المقاربة، والمشاكلة، والانسجام(٣).

وفي الاصطلاح: هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه.

والمناسبة في القرآن هي: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقته المعاني لما اقتضاه من الحال(٤).

---

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٨٨.

(٢) دلائل الإعجاز: ٥٠.

(٣) ينظر: الصحاح، مادة (نسب)، ولسان العرب، مادة (نسب).

(٤) نظم الدرر: ٦/١.

وقد عرف الإمام بدر الدين الزركشي المناسبة، فقال: "المناسبة: أمر معقول، إذا عُرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتيمها، ومرجعها- والله أعلم- إلى معنى ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي، أو حسي، أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني؛ كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه أو التلازم الخارجي؛ كالمترتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر... وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء..."(١).

وأوَّل من أظهر علم المناسبة: الإمام أبو بكر عبدالله بن محمد النيسابوري (ت٣٢٤هـ).

قال الشيخ أبو الحسن الشهرابانى: "أوَّل من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي: إذا قرئ عليه الآية: لِمَ جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟، وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة.

وقال الرازي: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"(٢).

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٥ - ٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ١/٣٦.

وقد أدرك الصحابة- رضي الله عنهم- هذه المناسبات، فقد روي أن بعض الصحابة بادر إلى ختم آية حين سمع أولها، فعن زيد بن ثابت، قال: (أملى على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾[1] إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴿١٤﴾ ﴾[2]، قال معاذ بن جبل: "فتبارك الله أحسن الخالقين"، فضحك رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟، قال: بها ختمت[3].

وحكي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غفور رحيم ﴿٢٠٩﴾ ﴾ ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه، فلمَّا قيل له: إن القراءة: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾[4]، قال: بخ بخ، عز فحكم[5].

ويتعدد أنواع المناسبة في القرآن، فمنها مناسبة السور، ومناسبة المعقد[6]، ومناسبة الموضوعات، ومناسبة أجزاء الآية الواحدة، وملاءمة ختمها بهذه

---

(١) سورة المؤمنون: ١٢.

(٢) سورة المؤمنون: ١٤.

(٣) أخرجه ابن حجرفي المطالب العالية: ١٣٧/٤، وفيه سنده جابر الجعفي ضعيف.

(٤) سورة البقرة: ٢٠٩.

(٥) ينظر: الإتقان: ١٠١/٢.

(٦) هو المجموعة من الآيات، وهذه التسمية كثيراً ما يرددها شيخنا د. محمود توفيق محمد سعد، ويسميه آخرون فصلاً. ينظر: سبل استنباط المعاني: ٧٨.

الأسماء الحسنى دون غيرها، وتعلقها الوثيق بمضمون الآية وتناسبها مع سياق نظمها.

والشواهد التي سنعرض لها ستكون من الآيات التي يتبادر إلى ذهن المتلقي أن ختم الآية سيكون بغير الأسماء التي ختمت بها الآية، لكن القرآن لا يعطي أسراره إلاَّ لمن سبر أغواره.

أولاً: ما ختم بـ (العزيز الحكيم):

وردت عدّة آيات ختمت بالعزيز الحكيم، والقارئ يظن أن ختمها بالغفور الرحيم أنسب للسياق؛ لتقدم طلب المغفرة في الآية، ومن أكثر الآيات التي وقف عندها المفسرون لاستجلاء السر في ختم الآية بالعزيز الحكيم آية المائدة، قال تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[1].

الآية وردت في سياق بيان نِعم الله على أتباع عيسى- عليه السلام-، وإنزال المائدة عليهم، وتبكيت النصارى على لسان عيسى حين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وبراءة عيسى ممَّا فعلوه وتنزيه الله عن ذلك، وتفويض أمرهم إلى الله بالعذاب أو الغفران.

وقوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾

بدأ بالعذاب؛ لأنهم فعلوا ما يستوجب العذاب وهو الشرك، وقد وجه العلماء سر مناسبة ختم الآية بالعزيز الحكيم، مع أنه يتبادر للذهن ختمها بالمغفرة والرحمة، وممَّا قالوه:

أ- أنه لو ختم الآية بالمغفرة والرحمة لكان التعلق بالشرط الثاني، ولا يكون له تعلق بالشرط الأوَّل، في حين أن ختمه بالعزة والحكمة متعلق بالشرطين، فإن تعذيبه ومغفرته مَنُوطان بعزته وحكمته، "فكان العزيز الحكيم أليق بهذا المكان؛ لعمومه، وأنه يجمع الشرطين، ولم يصلح (الغفور الرحيم) أن يحتمله ما احتمله العزيز الحكيم".

---

(١) سورة المائدة: ١١٨.

قال الألوسي: "وادعى بعضهم أنهما متعلقان بالشرطين لا بالثاني فقط، وحينئذ وجه مناسبتهما لا سترة عليه، فإنَّ مَنْ له الفعل والترك عزيز حكيم"(١).

ومعنى ذلك أن اختيار (العزيز الحكيم) متعلقٌ بالثواب والعقاب جميعاً.

قال الزمخشري: "وإن تغفر لهم، فإنك أنت العزيز، القوي، القادر على الثواب والعقاب، الحكيم الذي لا يُثيبُ ولا يعاقب إلاَّ عن حكمةٍ وصواب.

فإن قلت: المغفرة لا تكون للكفار، فكيف قال: ﴿ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ ؟، قلت: ما قال إنك تغفرُ لهم، ولكنه بنى الكلام على إنْ غفرتَ لهم، فقال: إن عذبتهم عدلتَ؛ لأنهم أحقاء بالعذاب، وإن غفرتَ لهم مع كفرهم، لم تعدم في المغفرة وجه حكمة؛ لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في العقول، بل متى كان الجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن"(٢).

ب- الآية مبنية على التسليم لله سبحانه، وتفويض الأمر إليه وليس على التعريض بطلب المغفرة.

جاء في (ملاك التأويل): "أمَّا آية المائدة فمبنية على التسليم لله سبحانه، وأنه المالك للكل، يفعلُ فيهم ما شاء، فلو ورد هنا عقب آية المائدة: (وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم) لكان تعريضاً بطلب المغفرة، ولم يقصد ذلك في الآية، وإنما قيل ذلك على لسان عيسى، تبرياً وتسليماً لله سبحانه، وليس موضع طلب مغفرة لهم، وإنما هو تَنصُّلٌ من حالهم، وتسليم لله فيهم.

---

(١) روح المعاني: ٦٨/٤.

(٢) الكشاف: ٦٩٧/١.

قال الغزنوي- رحمه الله-: "لم يقل: (الغفور الرحيم)؛ لأن مخرجه على التسليم، ولأن في ذكر العفو تعريضاً للسائل، والكلام لتسليم الأمرين، والحكمة تقتضيهما وكأنه قال: المغفرةُ لا تُنقِصُ من عِزّكَ، ولا تَخرجُ عن حكمتك"(١).

وقال ابن جزي: "يظهر لي أنه لما قصد التسليم لله والتعظيم له كان قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أليق، فإن الحكمة تقتضي التسليم له، والعزة تقتضي التعظيم له، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد ولا يغلبه غيرهُ، ولا يمتنع عليه شيءٌ أراده، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو عدم المغفرة؛ لأنه قادرٌ على كلا الأمرين لعزته، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته"(٢).

ح- أن ذكر (العزيز الحكيم) من باب الاحتراس، وذلك أنه "لا يغفر لمن استحق العذاب إلاَّ مَنْ ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، فهو العزيز، أي: الغالب، والحكيم: هو الذي يضع الشيء في محله، وقد يَخْفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء في بعض الأفعال، فيتوهم أنه خارج عنها، وليس كذلك، فكان في الوصف بـ(الحكيم) احتراسٌ حسن، أي: وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحدٍ في ذلك، والحكمةُ فيما فعلته"(٣).

---

(١) ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي: ١/١٣٨.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: ١/١٩٥.

(٣) ينظر: البرهان للزركشي: ١/٨٩، والإتقان للسيوطي: ٣/٣٥٢.

قال الألوسي: "إن ذكرهما من باب الاحتراس؛ لأن ترك عقاب الجاني قد يكون لعجز في القدرة، أو لإهمال ينافي الحكمة، فدفعَ تَوهُّمَ ذلك بذكرهما"(١).

خ- أن المقام مقام تَبرؤٍ ممَّا نُسِبَ إليه، وليس مقام طلبِ عفوٍ ومغفرة، فلا يصح في هذا المقام الصفح والمغفرة.

قال الزركشي: "وقيل لأنه مقام تَبرّ، فلم يذكر الصفةَ المقتضيةَ استمطارَ العفوِ لهم، وذكر صفة العدل في ذلك، بأنه العزيز الغالب، وقوله: (الحكيم) الذي يضع الأشياء في مواضعها فلا يعترض عليه، إن عفا عمَّن يستحق العقوبة"(٢).

فعيسى- عليه السلام- في مقام دفع التهمة عن نفسه، وإثبات براءته، فكيف يصح أن يطلب العفو عن هؤلاء الجناة المفترين؟، إنه الآن في موقفٍ يحتاجُ إلى الشفاعة لا أن يشفع هو.

قال ابن القيم: "ولم يقل (الغفور الرحيم)، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقامَ استعطافٍ ولا شفاعةٍ، بل مقام براءة منهم. فلو قال: (فإنّك أنت الغفور الرحيم) لأشْعَرَ باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدّ غضبه عليهم. فالمقامُ مقام موافقة للربّ في غضبه على مَن غضب الربُّ عليهم. فعَدَلَ عن ذكر الصّفتين اللتين يسأل بهما عطفَه، ورحمتَه، ومغفرتَه، إلى ذكر العِزّة والحكمة، المتضمِّنتين لكمال القدرة وكمال العلم"(٣).

---

(١) روح المعاني: ٦٧/٤.

(٢) البرهان: ٩٠/١.

(٣) مدارج السالكين: ٣٩٥/٢.

وكل هذه التوجيهات من العلماء تتظافر على بيان سر هذا الختم بـ(العزيز الحكيم)، فمنهم من استحضر عزّة الخالق وحكمته، ومنهم من كان الأدب مع الله مقصده، ومنهم من تغيّا التنزيه، ومنهم من استحضر حال عيسى- عليه السلام- حين الدعاء، وبراءته من عمل قومه، ولكل وجهة، وهذا التنوّع ولّد ثراءً في التنقيب عن سر هذا الختم.

ونظير آية المائدة قوله تعالى في سورة التوبة﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

وقوله سبحانه في سورة الممتحنة:﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ ﴾ (٢).

قال ابن عاشور: " ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تعليلٌ للدعوات كلها، فإن التوكل، والإنابة، والمصير تناسب صفة (العزيز)، إذ مثله يعامِل بمثل ذلك، وطلب أن لا يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة (الحكيم)، وكذلك طلب المغفرة؛ لأنهم لما ابتهلوا إليه أن لا يَجعلهم فتنة الكافرين وأن يغفر لهم رأوا أن حكمته تناسبها إجابة دعائهم لما فيه من صلاحهم، وقد جاؤوا سائلينه"(٣).

---

(١) سورة التوبة: ٧١.

(٢) سورة الممتحنة: ٥.

(٣) التحرير والتنوير: ١٤٩/٢٨.

ثانياً: ما ختم بـ (العليم الحكيم):

قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[1].

هذه الآية وردت في سياق المتخلفين عن الجهاد في غزوة تبوك، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، قال سبحانه: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[2].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ تشويق للنفس المتسائلة بماذا يحدث لهم.

فلمَّا أخبر تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ ﴾ اشتغل ذهن السامع بلفظة الشك: ﴿إِمَّا﴾ حتَّى يكون حال المتلقي بين الخوف والرجاء، فاشتد تشوقه إلى الختام، وربما ظن أنه يأتي في آخر الكلام: (والله تواب رحيم)، أو: (والله غفور رحيم)، فزاد من رجائه واستعداده لتلقي الإجابة، ثم ختم الآية بصفتي: (العلم والحكمة)؛ لأن أمرهم كان موكولاً إلى الله، لم يعلموه ولم يعلمه الناس، ولما كان العلم مبنى كل خير، وكانت الحكمة التي هي نهاية العلم وغاية القدرة مجمع الصفات العُلى، قال تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ ، لا يأمر إلاَّ بما يكون بالغ الحسن مصلحاً للدين والدنيا، (حكيماً) فيما يأمرُ وينهى[3]، وهو تذييل

(١) سورة التوبة: ١٠٦.

(٢) سورة التوبة: ١١٨.

(٣) نظم الدرر: ٢٦١/٢.

مناسب لإبهام أمرهم على الناس، أي: والله عليم بما يليق بهم من الأمرين، بمن يستحق العقوبة ممَّن يستحق العفو، حكيم بما يفعله بهم ترهيباً، وترغيباً، وتبعيداً، وتقريباً، وإنما عَظُم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك؛ لأن الشرع يطالبهم من الحد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه، إذ كان (كعب) من أهل العقبة، و(صاحباه) من أهل بدر[1]، لذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾، والتعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى عظيم ما قاسوا من الأهوال، وما ترقوا إليه من مراتب الخوف، وامتنان عليهم بالتوبة من عظيم ما ارتكبوا[2]. فوفقهم الله تعالى بعلمه وحكمته للتوبة؛ لعلمه بإخلاص النية، وصحة التوبة، وحكمته في تربية عباده وفيما يحكم فيهم ويقضي.

وفي ختم الآية بهذين الاسمين (عليم، حكيم) سر يتناسب مع ما تضمنته الآية الكريمة، إذ إن اسمه (عليم) مناسب لما تقدم فيها من جهالة أحوال هؤلاء، إلى أين يصيرون، أيغفر لهم أم يعذَّبون؟، إذ لا يعلم ذلك إلاَّ ذو علم بأمرهم، وهو اللهُ تعالى، ثم ذُكِرَ اسمه تعالى (حكيم) إشارةً إلى أنّ تأخير حكم هؤلاء إلى أن ينزل قوله تعالى فيهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[3] ليس عبثاً وإنما لِحِكَم كثيرة،

(١) المحرر الوجيز: ٣/٩٣.

(٢) نظم الدرر: ٤/٢٧.

(٣) سورة التوبة: ١١٨.

ومنها إثارة الهمّ والخوف في قلوبهم لتصحّ توبتهم؛ لأن التوبة عندما تجيء بعد ندم شديد، وتأديب نفسي تكون مرجوّة القبولِ من الله تعالى.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾[1].

التذييل بجملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لإفادة أن الله يعامل الناس بما يعلم من نياتهم.

قال الطبري: "ومعنى الكلام: ويمنُّ الله على من يشاء من عباده الكافرين، فيقبل به إلى التوبة بتوفيقه إيَّاهُ، والله عليم بسرائر عبادهِ ومَنْ هو للتوبة أهلٌ فيتوب عليه، ومَنْ منهم غيرُ أهلٍ لها فيخذلُهُ، حكيمٌ في تصريفِ عبادِهِ مِنْ حال كُفرٍ إلى حالٍ"[2].

وقوله سبحانه في سورة النساء: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦﴾[3].

"وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ؛ أي: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود، ومن حكمته أنه يتوب على

---

(١) سورة التوبة: ١٤- ١٥.

(٢) جامع البيان: ٣٧١/١١.

(٣) سورة النساء: ٢٦.

من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله من لا يصلح للتوبة"(١).

قال ابن عاشور: "وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مناسب للبيان، والهداية، والترغيب في التوبة بطريق الوعد بقبولها، فإنّ كلّ ذلك أثر العلم والحكمة في إرشاد الأمة وتقريبها إلى الرشد"(٢).

ومن الآيات التي ختمت بـ(العلم والحكمة)، ويتبادر إلى الذهن أن تختم بـ(غني حميد)، أو (واسع عليم) قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾(٣).

الآية في سياق البراءة من المشركين، ومنعهم من حج بيته الحرام، ولما كان مشيئته سبحانه تجري حسب مقتضى علمه وحكمته فقد خُتمت الآية بذكر اسمه تعالى ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ، وهو تذييل أُتي به- والله تعالى أعلم- وصفاً كاشفاً لتلك المشيئة، وأنّها مشيئة عليم، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم من يليق به الغِنى، ومَن لا يليق، وهي مشيئةُ حكيم أيضاً يضع الأشياء مواضعها، وينزّلها منازلها، والله تعالى يعلم ما يصلح أحوال الناس، وهو تعالى لا يعطي ولا يمنع إلاَّ عن

(١) تفسير السعدي: ١/١٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/٢٠.

(٣) سورة التوبة: ٢٨.

حكمة، فلمَّا منعكم- أيها المؤمنون- من أن تمكِّنوا المشركين بعد هذا العام أن يدخلوا الحرم، لم يكن تاركاً منفعتكم، فقدَّر غِناكم عنهم بوسائلَ أخرى علمها وأحكم تدبيرها.

وقد هيأ لهم العليم الحكيم أسباب الرزق، وأغناهم بالمغانم التي انتثلها بأيديهم- بعد نحو ثلاث سنين من إنزالها من كنوز كسرى وقيصر- غنى لم يطرق أوهامهم قط، ثم جعل ذلك سبباً لاختلاط بعض الطوائف من جميع الناس ببعض، لصيرورتهم إخواناً في الدين الذي كان سبباً؛ لأن يجتمع في سوق منى وغيره في أيام الحج كل عام من المتاجر مع الغرب والعجم ما لا يكون مثله في بقعة من الأرض"[1].

وبذلك يظهر سر ختم الآية بصفتي (العلم والحكمة) لله- سبحانه وتعالى- ، فالعلمُ يتناسب مع ما تضمّنته الآيةُ من الإخبار عن الغيب في قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ ، والحكمةُ تتناسب مع تدبير الله تعالى للمؤمنين ومن تهيئة أسباب رزقهم.

(١) ينظر: جامع البيان: ١١/٤٠٥، ونظم الدرر: ٨/٤٣٤، والتحرير والتنوير: ١٠/

ثالثاً: ما ختم بـ (الرحمة، والعفو، والمغفرة):

قال تعالى ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1].

حين التأمل في تركيب الآيات التي وردت فيها جملة تعالى ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ ﴾ نراها تختم بوعيد وتهديد ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [2]، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [3].

وحين نقرأ الآيات التي وردت فيها ﴿ ٱلْوَٰحِدُ ﴾ نعتاً للفظ الجلالة نراها ختمت بالقهار، ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾[4].

ويتبادر إلى الذهن أن تختم هذه الآية باسم من أسمائه التي تتضمن العزة والقهر، أو القوّة والجبروت ولكنها ختمت بالرحمة والمغفرة، وثمة توجيهات وجيهة للعلماء، منها:

قال الفخر الرازي في سر الختم بـ(الرحمن الرحيم): "إنما خصّ هذا الموضوع بذكر هاتين الصفتين؛ لأن ذكر الإلهية الفردانية يفيد القهر والعلو، فعقبهما

---

(١) سورة البقرة: ١٦٣.

(٢) سورة النحل: ٥١.

(٣) سورة المائدة: ٧٣.

(٤) سورة يوسف: ٣٩، وينظر الآيات: إبراهيم: ٤٨، الرعد: ١٦، ص: ٦٥، الزمر: ٤، غافر: ١٦.

بذكر هذه المبالغة في الرحمة، ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلهية، وعزة الفردانية، وإشعاراً بأن رحمته سبقت غضبه، وأنه ما خلق الخلق إلاَّ للرحمة والإحسان"[١].

فالرازي يرى سر الختم بـ(الرحمن الرحيم)؛ لأن ألوهيته سبحانه مبنية على الرحمة، ويرى أبو حيان أن السر في ذلك هو استحقاقه للعبادة؛ لأنه رحمك وأنعم عليك من نشأتك، وربَّاك، وختم لك بحسن العاقبة، يقول: "ذكر هاتين الصفتين منبهاً بهما على استحقاق العبادة له؛ لأن من ابتدأك بالرحمة إنشاء بشراً سويّاً عاقلاً، وتربية في دار الدنيا موعوداً الوعد الصدق بحسن العاقبة في الآخرة، جدير بعبادتك له، والوقوف عند أمره ونهيه، وأطمعك بهاتين الصفتين في سعة رحمته"[٢].

وفي وصف الله بـ(الرحمن والرحيم) إغاظة للمشركين، وزيادة في الرد عليهم؛ لأنهم أبوا وصف الله بـ(الرحمن) كما حكى الله عنهم بقوله:﴿ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[٣].

وفيها أنه جمع بين الترغيب والترهيب، فوصف نفسه بعد (إله واحد) بأنه (الرحمن الرحيم)؛ لأنه لما كان في اتصافه بـ(إله واحد) ترهيب، وعلو، وقهر قرنه بـ(الرحمن الرحيم) لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٩٦/٤.

(٢) البحر المحيط: ٦٣٨/١.

(٣) سورة الفرقان: ٦٠، وينظر: التحرير والتنوير: ٧٦/٢.

والرغبة إليه، كما قال سبحانه: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١).

ومن شواهد ما ختم بـ(غفور رحيم):

قوله تعالى:﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢).

الآية في سياق ذكر نِعم الله على عبادهِ، وأنهم لا يستطيعون لها عداً فضلاً عن شكرها، ولذا نقرأ في سورة إبراهيم:﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٣).

وثمة لطائف حول الختم هنا وهناك، ومناسبة كل ختم للسياق التي وردت فيه.

قال ابن جرير: " ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، يقول- جلَّ ثناؤه-إنَّ الله لغفور لما كان منكم من تقصيرٍ في شكر بعض ذلك إذا تُبتم وأنبتم إلى طاعتهِ واتباع مرضاته، رحيم بكم أن يعذبكم عليه بعد الإنابة إليه والتوبة"(٤).

وقال ابن عاشور: "﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استئناف عُقب به تغليظ الكفر والتهديد عليه تنبيهاً على تمكّنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك،

---

(١) سورة الحجر: ٤٩- ٥٠، وينظر: تفسير القرطبي: ١٣٩/١.

(٢) سورة النحل: ١٧- ١٨.

(٣) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٤) تفسير الطبري: ١٩٤/١٤.

ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون"(١).

وأمَّا الاختلاف في فاصلة الآية، مع أنه المتحدث عنه واحد، فقد التمس العلماء لها أسراراً، منها:

- أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبل عليه، فناسب ذكرُ ذلك التذييل بصفاته، وأمَّا آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته، وتحقيق صفاته، فناسب ذلك التذييل بصفات الله تعالى(٢).
- حين التأمل كأنه- الله- يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها، فحصل لك عند أخذها وصفان: كونُك ظلوماً، وكونُك كَفّاراً، ولي عند إعطائها وصفان: وهما أني غفور رحيم، أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك برحمتي، فلا أقابل تقصيرك إلاَّ بالتوفير(٣).

ولابن عاشور ملمح لطيف قال فيه: "وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنالك ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾(٤)؛ لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب

(١) التحرير والتنوير: ١٢٤/١٤.

(٢) ينظر: سورة إبراهيم: ٢٨- ٣٤، والنحل: ٩- ١٨.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٩٩/١٩، والبرهان للزركشي: ٨٦/١.

(٤) سورة إبراهيم: ٣٤.

قوله تعالى ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[1]، فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله.

وأمَّا هذه الآية فقد جاءت خطاباً للفريقين كما كانت النّعم المعدودة عليهم منتفعاً بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم لظلوم كفار بوصفين هنا ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إشارةً إلى أن تلك النّعم كانت سبباً لظلم الإنسان وكفره، وهي سبب لغفران الله ورحمته، والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان"[2].

وممَّا ختم بـ(المغفرة والرحمة) قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾[3].

وفي هذه الآية محاولة الإجابة على سؤالين:

الأوَّل: لِمَ ختمت بـ(الرحيم الغفور)، والمتبادر إلى الذهن أن تختم بـ(عليم خبير)؟

الثَّاني: كل فواصل القرآن تقدّم فيه (الغفور) على (الرحيم) إلاَّ هذه الآية تقدم (الرحيم) على (الغفور) فما سر ذلك؟

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٨.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢٤/١٤.

(٣) سورة سبأ: ٢.

أمَّا ختمها بـ(الرحيم الغفور)، فإن السورة الكريمة افتتحت بحمد الله تعالى، والثناء عليه بسعة ملكه، وعلمه بما في السماء والأرض، ولما كان من جملة أحوال ما في الأرض أعمال الناس وأحوالهم من عقائد وسير، ومما يعرج في السماء العمل الصالح والكَلم الطيّب أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: الواسع الرحمة والواسع المغفرة.

وهذا إجمال قصد منه حث الناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما، فإن من رغب في تحصيل شيء بحث عن وسائل تحصيله وسعى إليها، وفيه تعريض بالمشركين أن يتوبوا عن الشرك فيغفر لهم ما قدموه(١)

وقال ابن القيم: "ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما (الرحمة والمغفرة) فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم، ويهب لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، فتضمنت هذه الآية سعة علمه، ورحمته، وحكمه، ومغفرته وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة"(٢).

وأمَّا سر تقديم (الرحيم) على (الغفور)، فثمة لطائف:

- في عموم آيات القرآن يُقَدَّم (الغفور) على (الرحيم)؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مقدمة على الغنيمة.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣٨/٢٢.

(٢) بدائع الفوائد: ٨٠/١.

هذه الآية انتظمت ذكر المكلفين وغير المكلفين، فالرحمة تشمل الجميع، والمغفرة تخص المكلفين؛ فقدم العموم على الخصوص[١] كما في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[٢]، وكقوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[٣].

- أن الإنزال سبق العروج، وفي الإنزال رحمة للعباد، حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال[٤].
- أن السياق سياق الحمد، ففي الآية قبلها ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴿١﴾ ﴾[٥]، فناسب تقديم الوصف المصاحب للكمال على الوصف الجابر للنقصان.
- أن ما سبق يدل على ربوبية الله وملكه، والربوبية والملك لا تنتظم إلاَّ بالرفق، والإصلاح، والرحمة، فقدم الرحمة على المغفرة[٦].
- ومن شواهد ما ختم بـ(غفور حليم)، والمتبادر للذهن (عزيز حكيم) قوله تعالى:﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد: ٧٢/١.

(٢) سورة البقرة: ٩٨.

(٣) سورة الرحمن: ٦٨.

(٤) ينظر: بدائع الفوائد: ٧٢/١.

(٥) سورة سبأ: ١.

(٦) ينظر: بدائع الفوائد: ٧٢/١، ونظم الدرر: ١٥١/٦.

قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾[1].

الآية في سياق جواز خطبة المعتدة تلميحاً لا تصريحاً، والتحذير من تجاوز حدوده، وذلك بالتصريح بالخطبة لمعتدة الوفاة قبل انتهاء عدتها، ومع ذلك فإن الله غفور لمن تعدى حدود الله، وفرط بارتكاب الذنب.

قال أبو حيان: "ولما هددهم بأنه مطلع على ما في نفوسهم، وحذرهم منه أردف ذلك بالصفتين الجليلتين؛ ليزيل عنهم بعض روع التهديد والوعيد، والتحذير من عقابه، ليعتدل قلب المؤمن في الرجاء والخوف، وختم بهاتين الصفتين المقتضيتين المبالغة في الغفران والحِلم؛ ليقوي رجاء المؤمن في إحسان الله تعالى، وطمعه في غفرانه وحلمه إن زلّ وهفا"[2].

وقال تعالى:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[3].

سياق الآية في تنزيه الله تعالى عن افتراءات المشركين، حيث جعلوا له بنات، وجعلوا له شركاء، ويتبادر إلى الذهن ختمها بما يناسب هذا الافتراء من الشدة عليهم، والعزة، والقهر، والقوّة؛ لأن افتراءهم يقتضي إنزال أشد العقوبات بهم، لكن الله لا يعاجلهم بالعقوبة؛ لأنه حليم، ومع ظلمهم، وإجرامهم في حقه سبحانه فإنه يفتح لهم باب التوبة، ويخبرهم أنه غفور؛ ليتوبوا وينيبوا إليه.

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٥.

(٢) البحر المحيط: ١/٢٣٠.

(٣) سورة الإسراء: ٤٤.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ استئناف يفيد التعريض بأن مقالتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدنيا، لولا أن الله عاملهم بالحلم والإمهال، وفي ذلك تعريض بالحث عن الإقلاع عن مقالتهم ليغفر الله لهم(١).

وبدأ بالحلم؛ لدفع توهم غفلة الله عمَّا يعمل الظالمون وعن افترائهم عليه، وأتبع بالمغفرة حتَّى لا ييأسوا من رحمة الله(٢).

قال البقاعي: "لما كان الغالب على أحوال البشر أن حليمهم إذا غضب لا يغفر، وإن عفا كان عفوه مكدراً، قال تعالى﴿ غَفُورًا ﴾ مُشيراً بصيغة المبالغة إلى أنه على غير ذلك ترغيباً في التوبة"(٣).

(١) التحرير والتنوير: ١١٥/١٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق: ٣٢٩/٢٢.

(٣) نظم الدرر: ٤٢٨/١١.

رابعاً: ما ختم بـ(السميع البصير):

قال تعالى:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾[1].

هذه الآية افتتحت بها سورة الإسراء، والإسراء من أعظم الأحداث التي وقعت للرسول- صلى الله عليه وسلم-، ومعجزة لم يصدقها إلاَّ المؤمنون الراسخون، ولعظمة هذا الحدث العجيب يتبادر إلى الذهن أن تختم الآية بـ (على كل شيء قدير)، لكن الختم أتى بـ(السميع البصير) فما سر ذلك؟

للعلماء في عود الضمير ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ رأيان، وكلا الرأيين يكشفان سر الختم بـ(السميع البصير):

القول الأوَّل: وهو قول جمهرة المفسرين أن الضمير عائد إلى الله سبحانه، فهو يسمع ما يقوله المشركون من تكذيب لمسرى الرسول- صلى الله عليه وسلم-، ويبصر أعمالهم، وسيجازي الجميع بما قدموه.

قال ابن جرير: "إن الذي أسرى بعبده هو السميع لِما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة في مسرى محمد- صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى بيت المقدس، ولِغير ذلك من قولهم وقولِ غيرهم، البصيرُ بما يعملون من الأعمال، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ولا يعزُب عنه عِلم شيء منه، بل هو محيط بجميعه عِلماً، ومحصيه عدداً، وهو لهم بالمرصاد؛ لِيجزي جميعَهم بما هم أهله"[2].

القول الثاني: أن الضميرين عائدان إلى الرسول- صلى الله عليه وسلم-، قاله بعض المفسرين[3]، واستقرَبَه الطيبي[4].

---

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) جامع البيان: ١٥/١٧- ١٨.

(٣) ينظر: روح المعاني: ٨/١٥.

(٤) ينظر: فتوح الغيب للكشف عن قناع الريب: ٩/٢٤٢.

قال ابن عاشور: "والتعليل على اعتبار مرجع الضمير إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-أوقع، إذ لا حاجة إلى تعليل إسناد فعل الله تعالى؛ لأنه محقق معلوم، وإنما المحتاج للتعليل هو إعطاء تلك الإراءة العجيبة لمن شكّ المشركون في حصولها له، ومن يحسبون أنه لا يطيقها مثله.

على أنّ الجملة مُشتملة على صيغة قصر بتعريف المسند باللام وبضمير الفصل قصراً مؤكداً، وهو قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً للقلب، أي هو المدرك لما سمعه وأبصرهُ لا الكاذِبُ ولا المتوهمُ كما زعم المشركون، وهذا القصر يؤيد عود الضمير إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه المناسب للرد، ولا ينازع المشركون في أن الله سميع وبصير إلاَّ على تأويل ذلك بأنه المسمع والمبصِر لرسوله الذي كذبتموه، فيؤول إلى تنزيه الرسول عن الكذب والتوهم.

ثُمَّ إنَّ الصفتين على تقدير كونهما للنبي- صلى الله عليه وسلم- هما على أصل اشتقاقهما للمبالغة في قوة سمعه وبصره وقبولهما لتلقي تلك المشاهدات المدهشة، على حد قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾[1]، وقوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾[2]"[3].

وكلا القولين يُظهران سر مناسبة ختم الآية بـ(السميع البصير)، والقول الأوَّل أظهر وعليه الجمهور.

---

(١) سورة النجم: ١٧.

(٢) سورة النجم: ١٢.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢/١٥- ٢٣.

خامساً: ما ختم بـ(التواب):

قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾[1].

هذه الآية أتت في سياق الحديث عن فتح مكة، في سورة النصر، وفي هذه السور بشارة، وإشارة، بشارة بنصر الله لرسوله ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وإشارة إلى دنو أجل رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، فليحمد، ويستغفر، ويتهيّأ للقاء ربه، ومقتضى الظاهر أن يقال: إنه كان غفاراً، كما في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾[2]، فيُجرى الوصف على ما يناسب قوله:﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، فعُدل عن ذلك تلطفاً مع النبي- صلى الله عليه وسلم- بأنَّ أمره بالاستغفار ليس مقتضياً إثبات ذنب له لما علمت آنفاً من أن وصف (تواب) جاء من تاب عليه الذي يستعمل بمعنى وفقه للتوبة إيماء إلى أن أمره بالاستغفار إرشاد إلى مقام التأدب مع الله تعالى، فإنه لا يُسأل عمَّا يفعل بعباده، لولا تفضله بما بيَّن لهم من مراده؛ ولأن وصف (توّاب) أشد ملاءمة لإقامة الفاصلة مع فاصلة ﴿أَفْوَاجًا﴾ ؛ لأن حرف الجيم وحرف الباء كليهما حرف من الحروف الموصوفة بالشدة، بخلاف حرف الراء فهو من الحروف التي صفتها بين الشدة والرّخوة[3].

وقيل: إن في الآية احتباكاً، والأصل (واستغفره إنه كان غفاراً، وتب عليه إنه كان تواباً) فدل بالآمر بالاستغفار على الآمر بالتوبة، وبتعليل الآمر بالتوبة على تعليل الآمر بالاستغفار، فدلَّ بالمذكور على المحذوف[4].

---

(١) سورة النصر: ٣.

(٢) سورة نوح: ١٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٣/٥٩٦- ٥٩٧.

(٤) ينظر: روح المعاني: ٣٠/٢٥٩.

الخاتمة

١- أن السياق اللغوي له حضور في التراث العربي بهذه الصيغة منذ القرن الثاني الهجري.

٢- أن السياق في القرآن يشمل الأغراض والمقاصد التي تدور عليها جميع معاني القرآن، إلى جانب النظم الإعجازي، والأسلوب البياني الذي يشيع في جميع تعبيراته.

٣- أن جلال القرآن وتقديسه لدى المسلمين لم يكن يقف حائلاً دون دراسته، بأشكال، ولأغراض، وبمناهج مختلفة، وكل من تناوله بالدرس إنما كان يبحث عن المعنى على وجهٍ من الوجوه.

٤- أن التناسب وجه من أوجه إعجاز القرآن، وقد أولاه العلماء اهتمامهم بقسميه اللفظي والمعنوي، وكان الشيخ عبدالقاهر يحتفي بالتناسب المعنوي.

مراجع البحث

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (بيروت، دار المعرفة)، دت.
٢- أساس البلاغة للزمخشري (بيروت، دار صادر) ط١، ١٤١٢هـ.
٣- أسرار البلاغة للجرجاني، ت: محمود محمد شاكر (جدة، دار المدني) ط/١، ١٤١٢هـ.
٤- البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، ت. د: عبدالقادر أبو غدة (القاهرة، دار الصفوة، ط/٢، ١٤١٣هـ).
٥- البحر المحيط لأبي حيان، ت: عادل عبدالموجود، علي محمد معوض (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤١٣هـ.
٦- بدائع الفوائد لابن القيم، (بيروت، دار الكتاب العربي).
٧- البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت: مصطفى عبدالقادر عطا (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤٠٨هـ.
٨- البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت: مصطفى عبدالقادر عطا (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤٠٨هـ.
٩- التحبير في علم التفسير للسيوطي، ت. د: فتحي عبدالقادر فريد (الرياض، دار العلوم، ط/١، ١٤٠٢هـ).
١٠- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمبارك فوري (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤١٠هـ.
١١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ت: حسين إبراهيم زهران (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤٠٦هـ.
١٢- التفسير الكبير للفخر الرازي (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١.
١٣- التلخيص في علوم البلاغة للقزويني (بيروت، دار الكتاب العربي) د. ت.
١٤- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، ت: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام (مصر، دار المعارف)، د. ت.
١٥- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي) ط/٣، د. ت.

١٦- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (بيروت، دار الكتب العلمية)، ١٤١٣هـ.
١٧- دلالة السياق للدكتورة/ ردة الله بن ردة الطلحي (مكة المكرمة، مطبوعات جامعة أم القرى)، ١٤٢٤هـ.
١٨- دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني، ت: محمود محمد شاكر (القاهرة، مكتبة الخانجي) ط/٢، ١٤١٠هـ.
١٩- الرسالة للشافعي، ت: أحمد محمد شاكر (القاهرة، دار التراث، ط/٢، ١٣٩٩هـ).
٢٠- روح المعاني للألوسي، ت: علي عبدالباري عطية (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤١٥هـ.
٢١- شروح التلخيص (بيروت، دار السرور) د. ت.
٢٢- الصحاح للجوهري، ت: أحمد عبدالغفور عطار (بيروت، دار العلم للملايين) ط/٣، ١٤٠٤هـ.
٢٣- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب لشرف الدين الطيبي، ت: عمر القيام (نشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات) ط/١، ١٤٣٤هـ.
٢٤- الكشاف للزمخشري، ت: محمد عبدالسلام شاهين (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤١٥هـ.
٢٥- لسان العرب لابن منظور (بيروت، دار صادر) د. ت.
٢٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (بيروت، دار ابن حزم) ط/١، ١٤٢٣هـ.
٢٧- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ت: عبدالسلام هارون (بيروت، دار الجيل)، ١٤٢٠هـ.
٢٨- مفتاح العلوم للسكاكي، ت: نعيم زرزور (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/٢، ١٤٠٧هـ.
٢٩- ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، ت: د. محمود كامل أحمد (بيروت، دار النهضة العربية)، ١٤٠٥هـ.